المنهج التكاملي بين البناء والهدم

محمد قدوري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة مولاي إسماعيل بمكناس – المغرب

ملخص

يتشكل مدار هذا البحث حول إشكالية "المنهج التكاملي"، التي عرفت، في الوقت الراهن، صراعا في التصورات والمواقف والرؤى، بحيث سعينا فيه إلى رصد مواطن الخلاف في هذه الإشكالية التي غدت فاعلة في النقد الأدبي المعاصر، إذ أن الكثير من النقاد انجذب إليها مبرزين تصوراتهم منها، فمنهم من حاول التأسيس "للمنهج التكاملي" عبر إرساء دعائمه وتشييد لبنته، ومنهم من رفض بالمطلق وجوده في النقد عموما. وعليه فإن اختلاف الرؤى يؤجج فتيل الصراع ويثري الموضوع ويجعله أكثر عنى. واستناد إلى ذلك حاولنا، في هذا البحث، بسط أرضية تؤسس لعلاقة الكتابة بالمنهج، ثم استحضار وجهات النظر المختلفة حول الموضوع المدروس، وذلك من خلال التوجه إلى النقاد الذين كان لهم تأثير كبير في استشكال هذه القضية نظريا وتطبيقيا.

الكلمات الرئيسة: المنهج التكاملي، التناهج، الترابط المنهجي، النقد المنهجي.

Abstract

The focus of this research is on the problem of the "integrated approach," in which we have now learned about a conflict of perceptions, attitudes, and visions. We have sought to monitor the differences in this problem, which has become a factor in contemporary literary criticism. Many critics have been drawn to it, highlighting their perceptions. Some of them have tried to establish an "integrated approach" by laying its foundations and building its own daughter, some of whom have absolutely rejected its presence in criticism in general. Different visions thus fuel conflict, enrich the subject, and make it more than I do. On the basis of this, we have tried, in this research, to lay the groundwork for the writing relationship with the methodology and then to elicit different views on the subject considered by addressing critics who have had a significant influence on the conceptual and practical development of this issue.

Keywords: global method, modeling, methodological interconnection, and methodological money.

تقديم

منذ منتصف القرن العشرين إلى الآن، أضحى الحديث عن الكتابة النقدية مرتبطاً بالمنهج، فلم ينأ النقد الحديث عن ربط قرابات بينهما، وهو ما خوّل للأدب مساراً جديداً يتم من خلاله التدقيق في أصنافه وأجناسه، بما يصون تشعُّب الكتابة دون حدود مرسومة لفعلها، ويرصد المنهج كاستراتيجية نصّية، في تحيينه مع الكتابة بقدراته الممكنة أو المحتملة. الشيء الذي "يومِئُ إلى أنّ حياةَ كل منهج رهينة بتماسّهِ مع النصّ. فلا حياةَ لِمنهجٍ مّا خارجَ هذا التماسّ. فيه يُحوِّلُ المنهجُ النصّ ويتحوَّلُ به في آن. وفي هذا التحوّل المتبادَل، تتكشّفُ أسئلة المنهج وقضاياه"[1]. لذلك عمل النقد على ربط الصِّلات بين الكتابة والمنهج، وليس المغزى من ذلك هو التّماسك في بنية النصّ والتعاون على نَسجِ دلالاته وحسب، فهناك فَجَوات وبَياضات تُملأ بخلفيات معرفية ومرجعيات إيديولوجية، وإنما يتكتّلان معاً، سعياً، لكشفها والصّمت عنها في الحين نفسه.

مُساءلة الكتابة في منطلقاتها المنهجية أمرٌ لا بد منه، سيما وأن المناهج موشومة بأسسٍ نظرية وطرائقَ عملية لا تُدلي لا ببراءتها ولا بما تَسكُت عنه. قد نجازف إن قُلنا إنَّ هذا ما عوَّلتْ عليه الكتابة منذ شقِّها لأول مَسلك نحو مجهولها، فالسّمفونية التي تُنصِتُ القراءة إلى أنغامِها، تَماشياً والمرَح الذي تنشدُه وقتئذٍ، تقتضي انسجاماً وتماسكاً، في عَزْف الكتابة، يغذّيان حَيويَّتها ونشاطها، من غير أن يعني ذلك التفريط في معنى المسموع من صمْتِ الكتابة. والاجتماع على المعزوفة الأدبية إنصاتٌ لهويتها ومُمكنِها التخييلي، في هذه الحال، يَتكفَّل السَّماعُ بتحديد الأنساب عبر تأمُّل المعزُوف كتابياً بأليات منهجية، والملحون قرائياً نشدانا للمعنى. ما يَسِم هذا التأمل بالتباسٍ دينامي في الفعلين القرائي والكتابي، لانتسابهما إلى اللانهائي والمتاهاتي، فأن تُخْلقَ "متاهاتٍ بالقراءَة والكتابة، ليس إذن مهمّة سهلة. كما أنّه عملٌ لا يستقيمُ لِمَا يرومُ المنهجُ تحقيقَهُ وهو يتوَجَّهُ إلى النصّوص. إنّه عملٌ شاقّ، يتطلَّبُ لا فقط خلفية نظرية بل طاقة تخييلية، وقدرةً على إنتاجِ المعنى البعيد، وجُرأةَ إثارةِ القضايا الفكرية في غيْر الأماكن المألوفة في إثارَتِها"[2].

في النقد الأدبي الحديث، كانت العادة في مقاربة النصوص، وما تزال، تعتمد على منهج واحد من مناهج النقد الغربية، كل كاتب يبني منجزه بالمنهج الذي يراه مناسبا وقويا لتقديم أفكاره ومعارفه التي يريد إيصالها للمتلقي ومشاركته إياها، أي الاعتماد على منهج محدد بعينه دون أن يتضمن الكتاب في بنائه منهج آخر، لكن الساحة النقدية اليوم عرفت كسرا لهذه القاعدة، بعد بروز مجموعة من النقاد الذين يرون أن الكتابة في عمومها (سواء الأكاديمية أو الإبداعية) تحتاج إلى المزج بين المناهج رغم اختلافها وتباعدها المعرفي والفكري والمرجعي، ويدْعون الكتاب والباحثين إلى تبني هذه الرؤية المنهجية في الكتابة. وقد رُسم سياج هذه الدعوى من منطلق أساس هو أن

"التكامل المنهجي" عمل يرفض فردية ووحدانية البناء ويلغيها، ويدعو إلى تركيبة يراها متكاملة ومتراسة، استدلالا بأن الوجود يؤمّن ثنائيات متضادة مثل: الخير والشر، البحر والبر، الذكر والأنثى... في حيز جغرافي واحد تمثلا للتكامل والتعايش، تماما كالقراءة والكتابة في علاقتهما بالنص، فلا ضير عند أصحاب هذا الادعاء أن تجمع النصوص بين هجنة من المناهج على اختلافها في العمل، ذلك لأن المنهج، كيفما كان نوعه، مصدر للّعب المعرفي في النصوص.

واستنادا إلى تاريخ النقد الأدبي فإن لكل تصور أو وجهة نظر ما يعززها أو يخالفها أو هما معا في آن. ذلك أن موقف آخر تجاه فكرة "التناهج" في رفض وشقاق تامين لهذا النوع من المناهج، ويرجع هذا الرفض، في نظرهم، إلى أن لكل منهج خصوصياته الفكرية والمعرفية والإيديولوجية والمرجعية، بل يرون، أكثر من ذلك، أن المناهج جاء بعضها لينقض البعض الآخر ويخالفه في الشكل والجوهر، ولا يمكن الجمع بينها في نصّ معين. ويشيرون إلى أن الجمع بين المتناقض والمختلف في منطقة اشتغال واحدة لم يكن إلا جمعا بين العلم والجهل، الحياة والموت، الفكرة ونقيضها... وليس جمعا بين ما يبني، إنما هو هدف يقود إلى الهدم بقصد أو بدونه، ومتى تحقق التفاعل بين المناهج "التناهج" تولد الصراع والتنافر وضاع المحتوى، وتحول سؤال القارئ الفكري والمعرفي إلى السؤال المنهجي.

حيويٌّ أن نلحظ التدافع القائم في صورة ضدية تعرف استشكالا نقديا، لأن جوهر اللعبة مقيم في العلاقة بين فهم المعرفي والمنهجي، لكن ما يعززه، أي التدافع، هو غياب الرابط الذي يقوي هذه العلاقة في مقابل ما يرسم مسالك الشقاق والفرقة. السؤال الذي ينبع من منطقة الإقامة بغية الحد من هذا الخلاف ليكون نواة الفصل في المسألة المنهجية هو: هل تُسعفنا الكتابة بدون منهج؟ لم يبطن السؤال هنا التخليّ عن المناهج السياقية والنسقية وتهميشها، بل هو إثارة لإشكالية اللامنهج التي لا تنفك تتجدد مع كل استعصاء في الاستعمال المنهجي، حيث بدأت صيحتها تملأ الآفاق مؤخرا. فالناقد المتمكن من أدواته المعرفية يروّض المناهج فينتقي منها ما يناسبه في الكتابة، إلى حد يمكنه فيه اعتماد اللامنهج منهجا دون أن يعني ذلك عجزا منهجيا أو عبثية الاختيار.

إن كلمة "التناهج" أو "المنهج التكاملي" أو "التكاملية" وغيرها من الألفاظ التي تشترك معها في نفس المعنى والتوجه النقدي، دالة، بما لا يدع مجالا للشك، على عجز المنهج الواحد وقصوره، وإلا فما الحاجة إليها إذا كانت وحدانية المنهج تفي بالغرض. حري بنا أن نتساءل هل النقاد السابقين الذين تتغنى المكتبات بمنجزاتهم كانوا دهاة بما يكفي لأنهم لم يمزجوا بين المناهج في ممارستهم النقدية، أم أن النقاد المحدثين اكتشفوا أسلوبا جديدا للكتابة، أم أن القدرات النقدية لم تعد متوفرة عند الكتاب في الزمن الحديث؟ لا شك أن قراءة ما يتستر عنه هذا السؤال، في تأويله البعيد، تحتاج إلى مخض وجهات النظر المختلفة حول "المنهج التكاملي" حتى نستشف حقيقته وماهيته، إذ

في عمقه تغير يمسّ الكتابة، وكل تغير فيها مردُّه أساسا إلى القراءة، نستحضر هنا ما قاله **عبد الفتاح كيليطو** في هذا السياق: "لم أعد أقرأ كما كنت أفعل في السابق، وعندما تتغير القراءة، تتغير الكتابة لا محالة"[3]. المقياس ملكٌ للقراءة؛ تقيسُ به جودة الكتابة وخُصوبتها وآلياتها في تماهٍ تام بين الفعل القرائي والشكل الكتابي.

اللاَّفت هنا، هل الكتابة بكلِّ هذه الصّرامة حتى تقتضي منهجاً معيناً لتحريك جسْمها وهَزِّهِ على إيقاعاتٍ وأنغام تصور الكاتب؟ يبقى سؤالاً مفتوحاً طالما لم نعْثر له على جواب قطعيّ حاسم. كلُّ ما نعرفه بهذا الخصوص، أن بعض الدراسات النقدية في العقود الأخيرة من القرن العشرين تَتعدَّى الرؤية المنهجية الواحدة، وتَزعُم أنه بإمكان الكتابة أن تشُدّ بِيَديْها على خصرها بمنهجين أو أكثر، أي ما يدعى "بالمنهج التكاملي"[4]. إذا سلَّمنا بهذا الزَّعم والادّعاء بتوظيف مناهج متنوّعة ومختلفة في الأسس النظرية وآليات الاشتغال داخل حقل معرفيّ واحد هو النصّ، ألاَ يعني ذلك أن هذا إقرار بعدم نجاعة المنهج الواحد في العبور بالكتابة إلى ممكنها وما ترمي مجابهته؟ لا ننكر، طبعاً، أنّ ما تريد الكتابة تبليغه وتبني عوالمها عليه يمكّن "مِنْ تحصين الأدوات المنهجية من كلِّ تجريدٍ صوري، أي التجريد الذي يحجُبُ النصّ ويُحوّلُ أدواتِ القراءة إلى هيكلٍ جامد"[5]. ربما قد سيقت تلك الدعوى (التكاملية) عند العرب، خاصة المشارقة منهم، في الفترة التي لم يكن فيها النقد الأدبي بهذا التدقيق الذي عليه اليوم عند النقاد المعاصرين، الذين بدأت تتسرب إليهم، أيضا، عدوى "التكامل المنهجي". وفيما يلي نستعرض مواقف النقاد والدارسين الذين أرسوا تجربتهم النقدية على تعدد المناهج، ومواقف النقاد الذين وجهوا سهام نقدهم للمواقف السابقة.

1. مواقف البناء

من أوائل الذين دعوا إلى هذا التوجه المنهجي نستحضر، **سيد قطب** الذي جعل خاتمة كتابه "النقد الأدبي: أصوله ومناهجه" فصلا يحمل عنوان "المنهج المتكامل" ووصفه في العبارة الأولى "بالمنهج الفني" وعرّفه على أنه "في حقيقته متكامل من منهجين أو ثلاثة: المنهج التأثيري، والمنهج التقريري، والمنهج الذوقي، أو الجمالي"[6]، لعله من الدال أن الجمع بين هذه التركيبة المنهجية الثلاثية ليس مجردة أداة نستعين بها في تقديم المعرفة والأفكار، بل هي خطوة إجرائية لا يمكن للناقد إغفالها أو تجاهلها. هذه الهجنة، ظاهريا، تهدم الحدود وتطوي المسافات بين المناهج، لا من حيث حاجة بعضها إلى بعض في تحقيق الإنتاجية المطلوبة وحسب، وإنما بهدف تجاوز القصور النصي والسعي إلى تكاملية نقدية. "ولحسن الحظ أن النقد العربي الحديث سلك أحيانا كثيرة طريق ((المنهج المتكامل)) الذي يجمع هذه المناهج جميعا"[7]. يحاول سيد قطب هنا أن يقنع بأن النقد العربي وجد لنفسه مخرجا من سلطة المرجع الغربي

الرمزية، وأن ضرورة الإبداع فرضت نفسها على الناقد العربي مع تطور نقد النقد، بحيث صار الناقد، في الزمن الحديث، يمارس حقه في البحث عن منهج يتلاءم ومتطلباته في بناء تصور للنص المدروس.

وفق هذا الأساس، على القارئ اليوم أن يميط اللثام عن هذا التوجه الذي أصبح خصيبا ولا يمكن تجاوزه، بعد أن جعل لنفسه أرضية خصبة لاختلاف النقاد واستأثر باهتمامهم بشكل لافت، وغدا تسلله إلى فضائهم النقدي مذاعا ولا إضمار فيه ولا دلالة على مجهوليته. وحسب سيد قطب، الذي يشير بعبارة عارية عن كل غموض، فإن "((المنهج المتكامل)) لا يعد النتاج الفني إفرازاً للبيئة العامة، ولا يحتم عليه كذلك أن يحصر نفسه في مطالب جيل من الناس محدود"[8]. بهذا المعنى، فإن هذا التوجه المنهجي إمكان متاح ضمن إمكانات أخرى، بل الأكثر من ذلك أن هذه الدعوى تجعل منه بديلا عن المناهج السياقية والنسقية، لكونه الأداة الإجرائية الأكثر نجاعة حسب أصحابها، لا لأنها تسهل العبور إلى المعرفة النصية أو إيصالها فقط، وإنما في قدرتها على الجمع بين الشيء ونقيضه في الآن ذاته. فهُم يرَون أن التناهج لا يضير ولا يؤثر على معرفة النص وأفكاره من الناحية المضمونية، والبغية هي الإفادة من كل المناهج السابقة والتي تأكد لهم أنها لم تعد تغري الكتاب في تبنيها.

وتبعا لنهج سيد قطب، أرسى **شوقي ضيف** موقفه من "المنهج التكاملي"، بحيث يرى أن تكتل المناهج وتعاضدها في الممارسة الأدبية مطلب ضروري، فلا تنكشف جودة العمل وقيمته إلا بجمعها في إجرائية تكتلية. لا يعني التعاضد هنا، قوة خارقة معنويا، بل هو بحث عن الاستثمار الأمثل للنص المدروس، وهذا هو جوهر تصور شوقي ضيف، إذ يؤكد على وجوب تبني الباحثين لهذا المنهج، حاضًّا إياهم عليه بقوله: "إن الباحث الأدبي ينبغي أن يستضيء في عمله بكل المناهج والدراسات السابقة، إذ لا يكفي منهج ولا دراَسة واحدة لكي ينهض بعمله على الوجه الأكمل، بل لا بد أن يستعين بها جميعا حتى يمكن أن يضطلع ببحث أدبي قيم (...). فلا بد أن يتحول عقل الباحث إلى ما يشبه مرآة تعكس أضواء تلك المناهج"[9]. طوية هذا القول تومئ إلى تسييج المناهج النقدية بذريعة التلاقح في بؤرة لطالما وصفت بالتوتر والصراع والتنافر المنهجي. التسييج هنا ليس دالا على تكبيل المناهج وتقييدها، لأن الغاية هي التناغم في النصوص والبحث عن التكامل المنهجي بما لذلك من معنى. حرف التوكيد إن، في الاقتباس الأخير، كان دالا على أن المنهج الواحد استهلك قدرته في تمثيل النقد الأدبي، نظرا لما تعرفه الساحة النقدية، اليوم على الأقل، من نقد جديد، وأن البديل، الذي صار له دعاته ومناصروه، هو طاقة كبرى من كتلة المناهج. بهذا المعنى، تكون رؤية الناقد قد غدت أكثر انفتاحا واتزانا ومعها اتسعت الرهانات المنهجية وكبر السعي إليها.

وقد سار الدكتور **نعيم اليافي** على نهج سابقيه في تبني "المنهج التكاملي" إن لم نقل إنه قد فاقهما في التشهير به والدعوة إليه، ذلك أنه في معظم كتاباته تجد تلميحا، صريحا أو ضمنيا، إلى هذا المنهج. ليس هذا وحسب، بل إنه لم يكتف بالتنظير له فهو لا يكفّ عن الجهر بتبنيه له إذ يقول: "إن منهجي التكاملي جزء من رؤيتي للكون والإنسان والحياة، وجزء من موقفي في الدعوة إلى التعددية الفكرية والثقافية والسياسية، وجزء من نظرتي إلى علاقة الداخل بالخارج نصا ومثاقفة، وقد حاولت أن أدعو إلى هذا المنهج في غير ما مناسبة وأُأَسس له قواعده في دراسات عدة وأصوغ بياناته ومصطلحاته..."[10] هذه التجربة المنهجية، لكي تضمن وجودها ولا تبقى حبيسة ذاكرة أصحابها، تحتاج إلى تصريح ومجابهة نقديين يتجاوزان التردد في صوغ الخصائص المرجعية لهذا المنهج. توسيع الدائرة المنهجية عبر ربط الصلات بين المناهج المتوفرة سلفا، ليست بالمهمة اليسيرة، بحيث يتعين على الناقد أن يكون على اطلاع واسع وتمكن محكم منها جميعا حتى يتسنى له صياغة تلك الخصائص التي تميز هذا المنهج وتبرز فرادته تنظيرا وتطبيقا، وتبعا لذلك يكون قد أسس لنفسه ضوابط وآليات إجرائية لا يمكن الخروج عنها، فلا تعرف هوية أي منهج أو نظرية إلا بها.

إلى جانب هؤلاء النقاد الذين انطوت تجربتهم النقدية على الدفاع عن "المنهج التكاملي"، نذكر الدكتور **حسين جمعة** الذي فاق كل سابقيه في تمجيد هذا المنهج، فلم يتردد، ولو للحظة، أثناء إبراز تصوره، في الإقرار بأن "المنهج التكاملي" أفضل منهج يمكن الاعتماد عليه في القراءات والدراسات النصية، التي من شأنها إعطاء قيمة كبرى للرؤية النقدية العربية عموما، يقول: "إن محاولة تأسيس رؤية نقدية عربية أصيلة شمولية وإبداعية ذات قيمة كبرى لا تقل عن التجربة الإبداعية الشعرية أو النثرية... وفي هذا الإطار يبقى المنهج التكاملي أحسن الصور المنهجية التي تحقق ذلك..."[11] يغذي هذا القول فكرة أن المنهج الواحد غير قادر على استثمار إمكانات النص المعرفية والفكرية... وأن تكيفه معها يحتاج إلى طاقة تفوق طاقة المنهج نفسه، وتواشج المناهج هو الصورة المثلى القادرة على الاستجابة لمتطلبات النصوص، لكونها عملية تركيبية تنهل من مسارب كثيرة تتشابك فيما بينها وتتعاضد وفق ما يسمح به الاستعمال النصي.

مهما يكن، فإن محاولة جرد النقاد والدارسين الذين تمثلوا "المنهج التكاملي"، تنظيرا أو ممارسة، تحتاج إلى أكثر من بحث، لأن أصحاب هذا التوجه كثر وزوايا نظرهم مختلفة اختلاف منهجهم عن المناهج الأخرى، وما تمت مقاربته ما هو إلا جزء من تصوراتهم. وعليه، فقد كان هذا البحث محاولة جادة، سعت قدر الطاقة والجهد والمتاح، إلى إبراز أهم الأسماء المؤسسة لهذا المنهج. واستنادا إلى ذلك، يستشف من المواقف التي تم عرضها أعلاه أنهم لم يضعوا ضوابط محددة يشترط أن يلتزم بها الكاتب في بناء موضوعه، أو في تعامل الناقد مع النص المدروس. ومن

المعروف أن المناهج، سواء تلك التي تنظر إلى النص من الداخل كالشكلانية والبنيوية والتفكيكية... أو التي تربطه بكل ما هو خارجي مثل المنهج: التاريخي، الاجتماعي، النفسي... تملك آليات إجرائية ومرجعيات فكرية تفرض في استعمالها ضرورة الإحاطة بها حتى لا ينفصل عنها إلى العشوائية والهذيان. لعل ما يمكن التنصيص عليه، في مسألة رسم تصور واضح المعالم، هو التصريح ببعض الإشارات البسيطة التي تحاول ربط المنهج بالذات، في علامة إلى نصية النص عند البنيويين، أو نهوضه على الوقائع التاريخية أو الاجتماعية، وما هي إلا مسالك مضاءة تقود القارئ إلى المناهج النقدية التي سبقت هذا "المنهج". وبالتالي، فإن ضمانه، أي "المنهج"، لعدد كبير من النقاد المتبنين له في ممارساتهم والمدافعين عنه في تجاربهم النقدية، لا يعني أن سبل انضمامه إلى قائمة المناهج النقدية ستكون مفروشة بالورود، لأن عددا هائلا من النقاد اعترضوا سبيل وجوده ونفوا عنه هويته، إذ أن تلقيهم له كان بالتصدي والردع، وفي ما يلي سنحاول رصد مواقف أهم النقاد الذين وقفوا حائلا، أمام هذا المنهج، بالرفض والمهاجمة الشديدين.

2. مواقف الهدم

قبل رصد مختلف الآراء التي تصدت لفكرة تواشج المناهج، والتي هي أساسا خياطة منهجية، لا بد من الإشارة إلى أنه إذا كان النصّ حيّزاً واحداً لتلاقح المناهج، فهذا يتطلّب تفاعلها فيما بينها، ما قد يجعل دلالة الكتابة تؤول إلى ما لم تُنتج لأجله. بمعنى أن القارئ سيلحظ حدوث انزياح من موضوع الكتابة إلى موضوع عمل المنهج، على نحو تتقدم فيه الكتابة كوسيط بين شطحات المناهج التي يستعملها الناقد، بطريقة أو بأخرى، كأداة ووسيلة للنّفاذ إلى النصّ وتحصيل ما وراء الكتابة. وعلى هذا الأساس، سعى بعض النقا إلى تقويض فكرة التّكامل المنهجي، لكون "المنهج يكتسي طاقتَهُ على الإضاءة والكشف وإنتاج المعنى، لا فقط من التمثل الدقيق لأسُسِه النظرية والإبستيمولوجية، وإنّما أساساً من تحويله، بَعْد التمثل طبعاً، إلى علاقةٍ حيوية ومُنتجة، تقومُ على التفاعُل بينه وبيْن موضوعه"[12]، فأن يمثّلَ دورَه على أنه المحور الرئيس في العملية القرائية، لا يعني أنه استجاب لخدمة الكتابة وفق ما رسمه له الكاتب من حدود لا يمكن عبورها، لأن التركيب المنهجي سيحدث هالة لدى النقاد ويجعلهم في التباس مهول وارتياب خصيب، بحيث سيصبح تقابل النص معهم، على نحو مفارق، تقابلا مقنّعا تغدو فيه مساءلة النص تحمل مفارقة في المعنى المنشود، لأن التفاعل النقدي الذي أحدثه الاتجاه التكاملي، بما هو شرخ نقدي بيّن مشحون بالصراعات، كان مرده إلى الموجهات التي حاولت إرساء دعائمه التكاملية، "ولكن سرعان ما انحرف هذا الاتجاه من رؤية متكاملة للعمل الأدبي إلى نوع من التلفيق، إذ عجز بعض النقاد عن إدراك المعنى كوحدة تامة فعمدوا إلى بعض الدراسات المفتتة التي تحوي بعض الملاحظات الاجتماعية والنفسية والجمالية، ولكن ما ينقص هذه الملاحظات

هو التكامل ذاته"[13]. اللافت هنا هو أن يصير المنهج آلية إجرائية وموضوعا في الآن ذاته، وتبقى الكتابة في منأى عن اهتمام الناقد، وترجيح القول في هذا، والذي يغيب عن معظم الذين تصدوا "للمنهج التكاملي"، أنها لعبة تبادل الأدوار تصرف انتباه القارئ من معنى الكتابة إلى معنى المنهج.

يتفق أغلب النقاد، المهتمين بهذا الشأن، على أن ما يسمى "بالمنهج التكاملي" أو التعدد النقدي، ما هو إلا تسلط ابتدعه بعض المنتسبين إلى النقد العربي، لأنه غير موجود بتاتاً في الممارسة النقدية الغربية[14]، وهو ما صرح به نعيم اليافي نفسه والذي لا يكف عن التشهير بهذا المنهج[15]، ومن حقنا كقراء أن نتساءل، أليس هذا وحده دافع إلى الرّفض القطعي لتعدد المناهج داخل النصّ المدروس؟. لا يرتبط الأمر هاهنا بعدم استيعابه، وإنما جمعه، بغير خضوع لمنطق، بين مجموعة من المناهج التي لها قوالبها الفنّية وفرضياتها ومسلماتها التي تنبني عليها الأسس المعرفية وأدوات المقاربة النصّية الخاصة بكل واحد منها، "مما أدى إلى تشوه هيئة كل منها. ولعل أخطر ما في هذا الاجراء الاعتباطي . إضافة إلى أنه يغفل ما بين المناهج من اختلافات جوهرية بدهية، نظرية وتطبيقية . هو أنه يتخطى كونه اختراقا لهذه المناهج ليتحول إلى عائق معرفي"[16]. لا مراء أنّ الخطوة التي تعترض المعرفة والأفكار تتطلب تصديا للحد من تقدمها حتى لا تثبت الأقدام وتصير تعرّضا نقديّا شاذا يسعى إلى التوفيق بين المخالف والمناقض، أو تفعيلهما معاً في أن، داخل دائرة الاشتغال، إشباعاً للَبس نقدي مبنيّ على خلفية اعتباطية وعبثية وعشوائية، كما يراها الدكتور **رشيد بنحدو**[17]، إذ كيف أمكن لممارس النقد أن يؤْمن بتبنّي تشابك منهجي متعارض فيما بينه، وهو الغازي، بذوق وصرامة شديدين، لمساحة النصّ وكوامنه بحثاً عن مثل هذه المزالق والتخبّطات في جوانبه الفنّية والجمالية؟ **فمحمد عزام** أيضا يرى أنه "من المستحيل خلط هذه المناهج المتباينة للخروج بفرية منهج تكاملي"[18]. ومهما يكن، فإن محاولة عقد الصّلح والتوافق بين مناهج بنيت قَراباتها على التّنافر والتّنابذ والاختلاف يراها بنحدو، لا مناص، هذياناً نقدياً. بمعنى، منهج من لا منهج له بتعبير نعيم اليافي.

لم يعدم الناقد رشيد بنحدو الوسيلة للنيل من مشروعية هذا "المنهج"، موضوع الدراسة، لأنه كتب ثلاث دراسات مستقلة، رغبة منه في إقبار التكامل بين المناهج، بحيث جعل دراسته الأولى بعنوان: "المنهج التكاملي أو حين يتحول النقد إلى هرطقة" والتي نشرت في مجلة البيان الكويتية سنة 2002. وثاني دراساته في هذا المنحى وسمت بـ "المنهج التكاملي أو حين يتحول النقد إلى دعابة سمجة" ونشرت في كتاب يحمل عنوان: "النقد الأدبي بالمغرب: مسارات وتحولات" 2002، وهي نفس الدراسة التي سبق ونشرها لكنه قام بتعديل بعض الأفكار وإضافة أفكار أخرى. أما الدراسة الأخيرة فعنوانها هو: "ألف خطة وخطة والنقد المغربي في ورطة" نشرت سنة 2013. وصف فيها بنحدو "المنهج التكاملي" بالملغمة والسلاطة النقدية المتَوبَلة بمناهج متنافرة. وسعى، من خلال مقارباته لهذه الإشكالية، إلى

دحض تلك الرؤية مستحضرا أبرز الهفوات التي وقع فيها دعاة التكاملية. فهو يشير بصريح العبارة إلى أنه "لعبث فاضح وسفسطة فظيعة أن يدعي ناقد واحد لنفسه كافة هذه المناهج في آن واحد، فأن يكون كل هؤلاء يؤول به إلى أن يكون لا أحد بالمرة"[19]. وفي نظره، أن يحمل الناقد ذخيرته المنهجية هاجنا إياها بهدف استنفاد مقروئه، ليس دالا على قدر موسوعيته، بقدر ما يدل على عشوائية الاستعمال المنهجي وسوء فهمه للمناهج نفسها.

في موقف مشابه للتصور السابق، يضيء **عبد الملك مرتاض** هذا الطرح قائلا: "أولى لنا أن ننشد منهجا شموليا ولا أقول منهجا تكامليا، إذ لم أر أتفه من هذه الرؤية المغالطة التي تزعم أن الناقد يمكن أن يتناول النص الأدبي بمذاهب نقدية مختلفة في آن واحد، فمثل هذا المنهج مستحيل التطبيق عمليا"[20]. هذا النفور من "التعايش" بين المناهج يشكل، حسب مرتاض، عائقا نقديا في استعماله، أو يمكن أن نسميه فائضا نقديا، فالتراكم الذي عرفه النقد الأدبي منذ ميلاد أول منهج كان لا بد من أن يحدث تغييرا معرفيا وفكريا تنظيرا وتطبيقا، لكن الذي لم يستوعبه خصوم التناهج هو أن يغدو التغيير أساسه الهدم لا البناء، التقويض لا الإنتاج، العرقلة لا التطور... وتتحول النهضة الأدبية إلى انتكاسة أُحدِثت بفعل النقد، ولا يحد من هذا التحول إلا مقاومة مصدره في الجهة الفاعلة. مقاومة من شأنها أن تثير قلق النقاد من نجاعة مخزونهم المنهجي، والحرص على إحيائه واستثماره أو التسليم بسلطة المنهج المستحدث.

وقد عدّ **سعيد علوش** نظرة شوقي ضيف التهجينية جناية على الأدب، حيث يؤكد على أن "تبيان جناية هذه النظرة التوفيقية والمتذبذبة على البحث الأدبي العربي غير مستعصية (...) ولو عاد شوقي ضيف – وهو الباحث في القديم والجديد – إلى لحظة الوعي الضرورية لكل باحث لما أتعب نفسه ليصل إلى نتيجة توفيقية هزيلة كمنهجه التكاملي"[21]. يتيح لنا هذا القول فهم طبيعة الهجمة التي تساق ضدا التكامليين، ذلك لأنهم ينظرون إلى هذا الإجراء، أي التكامل بين المناهج، كمحول لبوصلة النقد عبر تصويبها نحو كل الاتجاهات، كما لو أن النقد مُوجَّه بلا هدف والنصوص بلا مُستهدِف. حيوي أن نستوعب أن التناغم، بما هو جمع بين شيئين أو أكثر يختلفان في التصور والمرجعية المميزين لكل واحد منهما بهدف التكامل، لا تسعف إقامته في بعض الأحيان، "فحين تكون الذات بنيوية مثلا، يكون النص نسقا من الطرائق والوظائف والموتيفات. وحين تتحول إلى محللة نفسانية، يصبح هوتوليفة لا شعورية من التداعيات والهذيانات. وحين تستعير قناع المحلل الاجتماعي، يكون هو مرآة عاكسة بأمانة لتحولات المجتمع..."[22]. ووفق هذا الأساس، لم يعد بالإمكان تصور تكامل منهجي.

ونبَّه روجر فايول Roger Fayolle النقاد، في المسألة ذاتها، إلى ضرورة استيعاب الاختلافات المرجعية بين المناهج، فهي وحدها كافية لعدم الوقوع في فخ المنهج المستحدث، حيث يقول: "حذار من الإفراط في تقدير

سلطان النقد! حذار من إغفال أخطار الانتقائية التي تصطفي أحسن ما في كل واحد من المناهج، ومن ثم تهمل الأبعاد الإيديولوجية والمذهبية الخاصة بكل منها. إنا لكل مدرسة تصورا معينا للأدب. وهذا يعني أن هناك لا أدباً واحداً، بل آدابا متعايشة بصعوبة فيما بينها، حقيقية ومحتملة"[23]. لقد غدت إشكالية "المنهج التكاملي" في النقد الأدبي خصيبة جدا، نظرا لأنها جذبت اهتمام الكثير من النقاد وجعلتهم يولون أنظارهم صوبها، وكلما اقترب منها ناقد معين إلا وكان انتشارها أوسع، كما لو أنها كانت مهيأة لتتحول من حل منهجي إلى إشكال نقدي.

خاتمة

لم يكن هدف هذا البحث هو الميل إلى أحد الأطراف على حساب الآخر، إنما هي مقاربة لمختلف التصورات حول هوية "المنهج التكاملي"، ومحاولة لرصد الشرخ الحاصل في ثنايا الكتابة المنهجية في الزمن الحديث، وسعي إلى تبيان الفجوة البانية، في تأويلها، للتحول السريع في مسار النقد الأدبي الحديث. ولا يدعو، أي البحث، إلى الاكتفاء بالمناهج النقدية الغربية إذا استطاع دعاة "المنهج التكاملي" تثبيت رؤية شاملة له تبرز خصائصه ومميزاته، سيماته ومقوماته، مرجعيته وأسسه... المسألة غير مرتبطة بإقامة وزن للناقد العربي إذا استطاع أن يستحدث منهجا أو نظرية أو أي إجراء كيفما كان نوعه، ولكنها مرتبطة أساسا بالإقناع، لأن الأسس الفكرية والمعرفية التي حاول التكامليون إرساءها لمنهجهم لم تكن مقنعة، بل اعتبرها المتصدون لهذا المنهج عبثية وتلفيقية وعشوائية وإجراءات اعتباطية.

الهوامش:

(1) ـ قضية المنهج في النقد المغربي الحديث، مجموعة من المؤلّفين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، 2013، ص 106 . 107.

(2) ـ المرجع السابق، ص 106.

(3) ـ الأدب والغرابة، دراسة بنيوية في الأدب العربي، عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال للنشر، ط 12، 2015، ص 6.

(4) ـ ما يسمى، عن وعي أو بغيره، منهجاً تكاملياً أو تلاقحاً منهجياً بدعوى التناهج، يضعنا أمام ضرب من التناقض؛ إذ لا يمكن أن تلتقي نظريات وأليات منهجية متقاطعة المرجعيات، وُجِدت أساساً لتفنيد بعضها. فلا يمكن، مثلاً، أن نناهج بين منهج يعتبر النصّ بينة مغلقة وآخر ينهض على أن النص كيان مفتوح.

(5) ـ المرجع السابق، ص 104.

(6) ـ النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة ـ مصر، ط8، 2003، ص 253.

(7) ـ النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، سيد قطب، مرجع سابق، ص 253.

(8) ـ النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، سيد قطب، مرجع سابق، ص 253.

(9) ـ البحث الأدبي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، ط 1، 1972، ص 193 وما بعدها.

(10) ـ حوار الأعماق، نعيم اليافي، مجلة الموقف الأدبي، العدد 337، يونيو 1996، ص 79.

(11) ـ المسبار في النقد الأدبي، دراسة في نقد النقد للأدب القديم وللتناص، حسين جمعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق – سوريا، ط1، 2003، ص 56.

(12) ـ قضية المنهج في النقد المغربي الحديث، مجموعة من المؤلّفين، مرجع سابق، ص 90.

(13) ـ بنية الخطاب الأدبي، حسن خمري، اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، 1983، ص 52.

(14) ـ جدير بالذكر أنه منذ بداية العصر الحديث، كان السبق في التنظير والممارسة لمعظم النظريات والمناهج النقدية والفلسفية والاتجاهات الفكرية وغيرها للمبدع الغربي، ولم يتم تقريب الأعمال النقدية عندهم بمنهج يدعى "بالمنهج التكاملي". فمن المعلوم أن لكل منهج رواد وأعلام أسسوا له مبادئه وقوانينه الإجرائية، ومرجعيته الفكرية والثقافية والإيديولوجية، الشيء الذي يفتقده هذا

المنهج. قد يقول البعض إن الأسس الخمسة (الموسوعية، الانفتاح، الانتقائية، التركيب، النص الإبداعي) التي وضعها الدكتور نعيم اليافي لهذا المنهج في مقاله الذي نشر في مجلة البيان الكويتية، تحت عنوان: ((في النقد التكاملي))، كفيلة بأن ترسي معالمه، لكن النقاد المناهضين لهذه التكاملية المزعومة، في نظرهم، يغلقون عليها موسوعيتها وانفتاحها ويصفونها بالمبررات التي تحاول إقامة هوية منهجية، وهذا تلميح منهم إلى أن هذا الادّعاء لا يعدو خَبط عشواء في تاريخ النقد الأدبي.

(15) ـ أنظر مطلع مقاله: في النقد التكاملي، نعيم اليافي، البيان _ الكويتية، العدد 306، 1996.

(16) ـ المنهج التكاملي أو حين يتحول النقد إلى هرطقة، رشيد بنحدو، مجلة البيان . الكويتية، العدد 383، 1 يونيو 2002، ص 14.

(17) ـ الدكتور رشيد بنحدو كاتب وناقد ومترجم عمل أستاذا سابقا في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سيدي محمد بن عبد الله ظهر المهراز – فاس.

(18) ـ تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، محمد عزام، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، 2003، ص63.

(19) ـ قضية المنهج في النقد المغربي الحديث، مجموعة من المؤلّفين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، 2013، ص 67.

(20) ـ ألف ليلة وليلة، دراسة سيميائية تفكيكية لحكاية حمال بغداد، عبد الملك مرتاض، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، 1989، ص10.

(21) ـ زمن المنهج الأدبي بين جيلين، سعيد علوش، مجلة الزمان المغربي، العدد 6_7، 1 أبريل 1981، ص 114.

(22) ـ قضية المنهج في النقد المغربي الحديث، مجموعة من المؤلّفين، مرجع سابق، ص 66.

(23) - Roger Fayolle, "La critique littéraire", in Littérature et genres littéraires, collectif, Paris, éd Larousse, 1978, p 67.